

## معروف الرصافي؛ نبذة من حياته وأدبه

توفيق رجبى\*

تاريخ الوصول: ٩١/٩/١٠

تاريخ القبول: ٩٢/٢/١٨

### الملخص

يعتبر معروف الرصافي أحد أربعة مجيدين من شعراء العراق المحدثين؛ والآخرين هم الزهاوي، والكاظمي، والشبيبي. ولد الرصافي ببغداد حوالي سنة ١٨٧٥ م، وتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن في مكاتب العراق، ثم دخل المدرسة العسكرية، ولكنه نفر منها، وانصرف إلى الدراسة الحرّة والمدارس الدينية، وقد وجهه شيخه الأوس وجهة أدبية. كان الرصافي فقيراً فاشتغل بالتعليم والصحافة، وعين مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف، ثم انتخب نائباً في المجلس النيابي، وكانت وفاته سنة ١٩٤٥ م. أنتج الرصافي كثيراً من المؤلفات ودبوان شعر كبير، أكثر فيه من الوطنيات والوصف والاجتماعيات. كان الشاعر كثير العطف على البائسين، يصور ألامهم، ويستحث قومه على الرفق بهم، وقد برع في هذا اللون براعة فائقة لأنه ذاق مرارة العيش وقسوة الحياة.

**الكلمات الدلالية:** الرصافي، شعراء العراق، شاعر البؤساء، سجينه الدار، الوصف، القصيدة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی  
پرتال جامع علوم انسانی

## المقدمة

خلف الرصافي آثارا كثيرة في النثر والشعر واللغة والأدب منها:

١. «الأناشيد الوطنية»: وهي طائفة من الأناشيد الوطنية، والأدبية نظمها الشاعر لطلاب المدارس.
  ٢. «نوح الطيب في الخطابة والخطيب»: وهو مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة مدرسة الواعظين في الآستانة.
  ٣. «دروس في آداب اللغة العربية»: وهي محاضرات ألقاها في دار المعلمين العالية ببغداد.
  ٤. «رسائل التعليقات»: في نقد كتاب «النثر الفني» وكتاب «التصوّف الإسلامي».
  ٥. «على باب سجن أبي العلاء» وفيه ردّ على طه حسين في كتابه «مع أبي العلاء المعري».
  ٦. «تمام التربية والتعليم» وهي مجموعة شعرية صدر عام ١٩٢٤م.
  ٧. «الرؤيا» رواية للأديب التركي ناصف كمال نقلها الرصافي إلى العربية.
  ٨. «ديوان الرصافي» ويعرف بالرصافيات، تولى طبعه وتبويب قصائده وتفسير غريبها محي الدين الخياط والشيخ مصطفى الغلاييني، وقد رتب على أربعة أبواب: الكونيات، والاجتماعيات والتاريخيات والوصفيات؛ وطبع سنة ١٩١٠م (الفاخوري، ١٩٨٦: ٤٨٧).
- يعتبر الرصافي شاعر الاجتماع والسياسة حيث دعته البيئة وأحوال العصر إلى الاهتمام بشؤون الوطن والناس وموضوعات كحرية الرأي ونشر العلم والقضاء على الجهل وإخراج المرأة من ظلمتها، والاعتماد على النفس، ونبذ التخاذل، ونشر لواء العدل، وإنصاف الطبقة البائسة حتى عرف بـ "شاعر البؤساء".
- كان همّه الأوّل أن يوقظ الناس من غفلتهم فيتطلّعوا على الوجود تطلّع الأحياء ويخرجوا من الجمود إلى الحركة، ومن الخمول والتشنج إلى العمل الذي ينفع. يرى الرصافي أنّ السبب الرئيسي في تخلف الشرقيين عامة، والعرب خاصة هو انتشار الجهل في ربوعهم ويقول: «العلم هو النور الذي يهدى والفكر الذي يبده واليد التي تصنع، فالجهل موت» (العقاد، ١٩٤٧: ٣٥٥)؛ والرصافي يريد الحياة لأمتة فيشجّع على طلب العلم لأنّ العلم عنده يضمن الحياة العزيزة، ويرفع الإنسان إلى مستوى إنسانيته ويفتح

له أسرار الوجود، ويجعل طاقات الطبيعة بين يديه، فيخترع وينجز ويبني ويكتشف  
المجهول ويخترق أجواء الفضاء، كما يغوص إلى أعماق الماء وبالعلم تزهو الأوطان حيث  
يقول:

بِالْعِلْمِ تَنْتَضِمُ الْبِلَادُ فَإِنَّهُ  
لِرُقَى كُلِّ مَدِينَةٍ مِرْقَاةٌ  
أَتَّهَمَ الرَّصَافِي فِي دِينِهِ كَمَا اتَّهَمَ الزَّهَّادِي، وَمَا هُوَ بِالْكَافِرِ وَلَا الْمَارِقِ، وَإِنَّمَا هُوَ الْمُؤْمِنُ  
الَّذِي لَا يَرَى الدِّينَ فِي الْقَشُورِ وَالتَّعَصُّبِ وَالجَهْلِ. وَالدِّينَ فِي نَظَرِهِ هُوَ الْإِيمَانُ النَّيِّرُ،  
وَالْعَمَلُ الْخَيْرُ. وَالدِّينَ خَيْرٌ وَصَلَحٌ، وَالتَّعَصُّبُ ظُلْمَةٌ وَجَهْلٌ. لَمْ يَأْتِ الرَّصَافِي بِجَدِيدٍ فِي  
مَوْضِعِ الْمَرْأَةِ، وَمَرَجَعَ آرَائِهِ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ الْعَرَبِيَّةَ جَاهِلَةٌ، وَلَا بَدَّ مِنْ  
تَثْقِيفِهَا لِأَنَّهَا مَرْبِيَّةُ النَّشْءِ وَهِيَ مُحْتَقَرَةٌ وَمَظْلُومَةٌ وَلَا بَدَّ مِنْ تَحْرِيرِهَا لِأَنَّهَا إِنْسَانٌ كَامِلٌ  
الْإِنْسَانِيَّةَ، وَهِيَ سَجِينَةُ الدَّارِ وَلَا بَدَّ مِنْ إِطْلَاقِهَا لِأَنَّهَا كَالرَّجُلِ خُلِقَتْ لِتَعْمَلِ. وَالرَّصَافِي  
يُقَارِنُ مَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ الْيَوْمَ وَالْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ.

وإذا نظرنا نظرة فاحصة إلى شعره نرى أن الوصف شائع في شعر الرصافي حيث نجد  
في كل باب. يصف على سبيل المثال القطار، وقد ركبه من الآستانة إلى سلانيك،  
وعجب لما وجد فيه من سرعة انتقال ومن تغلب على الصعاب ثم من دعة  
وهناءة(الفاخوري، ١٩٨٤: ٤٩٧).

وَقَاطِرَةٌ تَرْمِي الْفَضَا بِدَخَانِهَا  
تَسَاوَى لَدَيْهَا السَّهْلُ وَالصَّعْبُ فِي السَّرِيِّ  
وَتَمَلَّأَ صَدْرَ الْأَرْضِ فِي سَيْرِهَا رُعباً  
فَمَا اسْتَسَهَلَتْ سَهلاً وَلَا اسْتَصَعَبَتْ صَعْباً

وقال يصف الشمس الغاربة، وهو في الريف بين المروج الخضراء:  
نَزَلَتْ تَجْرُّ إِلَى الْغُرُوبِ ذِيولاً  
تَهْتَزُّ بَيْنَ يَدِ الْمَغِيبِ كَأَنَّهَا  
صَفْرَاءُ تُشْبِهُ عَاشِقاً مَتَبولاً  
صَبٌّ تَمَلَمَلَ فِي الْفَرَاشِ عَلِيلاً  
وَبَكَتْ مَعَارِبُهَا الدِّمَاءَ أَصِيلاً  
وَضَحَكَتْ مَشَارِقُهَا بِوَجْهِكَ بُكْرَةً

حينما نتصفح ديوان الرصافي نجد فيه قصائد ومقاطع حكمية كثيرة وكأنه قد أراد

أن يكون معلماً ومرشداً لأبناء قومه، حيث يقول:

لَعَمْرُكَ مَا كُلُّ انْكَسَارٍ لَهُ جَبْرٌ  
وَمَا النَّاسُ إِلَّا خَادِعٌ أَدْرَكَ الْمُنَى  
وَلَا كُلُّ سِرٍّ يَسْتَطَاعُ بِهِ الْجَهْرُ  
فِيمَا أَرَادَ لَمَّا تَعَادَى اثْنَانِ

لو قاس كل فتى سواه بنفسه لم يرج أن يجزى على الإحسان  
وهناك موضوعات أخرى في شعره منها البؤس والفقر، فنراه كثيراً ما عرض الرصافي  
للبؤس والبؤساء، والفقر والفقراء، واليتم والأيتام. قال في حديث له: «كانت مشاهد البؤس  
من أشدّ الدواعي عندي إلى نظم الشعر».

أمّا الأفاصيص الحزينة فنجدها في قصائد مشهورة من مثل «اليتيم في العيد»، «الفقر  
والسقام» و«أم الطفل في مشهد حريق»، وقد ظهر الشاعر في هذه القصائد بمظهر  
الإنسانية وروح كريمة حافلة بالحنان والشفقة، وقلب كبير تملأه المحبة لبنى الإنسان  
وعين سخية تذرف الدمع على شقاء البشر. وكثيراً ما نراه فيها يتوجّه إلى الله طالباً  
الرحمة للبائسين، ويتوجّه إلى الأغنياء طالباً الشفقة ومدّ يد المعونة إلى المعوزين.  
وفي هذا المجال نذكر شذرات من قصيدته «إمرأة بائسة»:

لقيتها ليتنى ما كنت ألقاها      تمشى وقد أثقل الإملاق ممشاها  
أثوابها رثة والرجل حافية      والدمع تذرفه فى الخد عيناها  
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها      واصفر كالورس من جوع محياها  
مات الذى كان يحميها      فالدهر من بعده بالفقر أشقاها  
ويسعدها الموت أفجعها والفقر أوجعها      والهيم أنحلها والغم أضناها  
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها      والبؤس مرآه مقرون بمرآها  
كرّ الجديدين قد أبلت عباؤها      فانشق أسفلها وانشق أعلاها  
ومزق الدهر ويل الدهر مئزرها      حتى بدا من شقوق الثوب جنبها  
تمشى بأطمارها والبرد يلسعها      كأنه عقرب شالت زباناها  
حتى غدا جسمها بالبرد مرتجفاً      كالغصن فى الريح واصطكت ثناياها  
(محمد السيد، ١٩٧٠: ١٦٧)

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن أرملة مصورا سوء حالها وشدة بؤسها، حيث  
يقول: رأيت هذه المرأة وكنت أتمنى ألا أراها، كانت تمشى بطيئة متخاذلة وقد أنهكها  
الفقر وأثقل خطاها الحرمان. تمزقت أثوابها وحفيت قدمها، وتساقطت على خدّها دموع  
عينها. لقد أكثرت من البكاء حتى التهبت كالجمر عيناها وأنهكها الجوع حتى اصفر  
كالورس لونها؛ فقد مات زوجها الذى كان مبعث أمنها وسعادتها وقسا عليها الدهر فقضى

بفقرها وبؤسها. فتجمّع عليها ألم الموت والفقر، وسبّب لها الحزن الهزال والمرض، حتى صارت صورة صادقة للحزن وتمثالاً حياً للشقاء والبؤس. لقد بُليت عباءتها من تعاقب الأيام عليها فتمزّق أعلاها وانشقّ أسفلها. ومزّق الدهر ثوبها حتى ظهر من ثقبه جسمها. وكان البرد يتسرّب إليها وهي تسير في أسماها، فيلسعها كما تلسع العقرب الشائلة فريستها. فأخذت أسنانها تضطرب وتصطك، وجسمها يهتزّ في البرد اهتزاز الغصن في مهب الريح.

واستطاع الشاعر في الأبيات السابقة أن يعطى صورة حية مؤثرة للمرأة البائسة الحزينة التي فقدت زوجها، وساء في الدنيا حظها، فهي دامعة العين، هزيلة الجسم، حائلة اللون، ممزّقة الثوب، بائسة المنظر. والشاعر يستخدم الصورة الشعرية فيجمع جزئيات المنظر، فتحس كأنك واقف أمام المرأة، تراها وتألم لمنظرها، وإليك قوله:

أثوابها رثّة والرّجل حافية      والدّمع تذرفه في الخدّ عيناها  
بكت من الفقر فاحمرّت مدامعها      واصفرّ كالورس من جوع محياها

(الرصافي، ١٩٣١: ٢١٣)

حيث تجد أمامك امرأة مسكينة دامعة شاحبة. وقرأ قوله:

حتّى غدا جسمها بالبرد مُرتجفا      كالغصن في الريح واصطكت ثناياها  
ترها أمامك مرتعدة مرتجفة من شدّة البرد وقسوة الزمهرير(محمد السيد، ١٩٧٠: ١٧٨).

والشاعر يلجأ إلى التشبيه عندما يقول: واصفرّ كالورس، كأنه عقرب، كالغصن في الريح كما يميل إلى الاستعارة عند قوله: أثقل الإملاق ممشاها، مزّق الدهر مئزرها، البرد يلسعها؛ وأخيرا يعتمد على الكناية في قوله: فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآه مقرون بمرآها، فهي حزينة بائسة.

وتعتبر هذه القصيدة نموذج من نماذج الشعر الاجتماعي الذي يتناول ناحية من نواحي المجتمع فيعرضها أو يعالجها. وهذا الغرض في قصيدة الرصافي من أغراض الشعر التي ظهرت في هذا العصر وبرز فيها بعض الشعراء كالرصافي وحافظ وشوقي.

وإذا كان من حديث عن الموسيقى في هذا النصّ فإنها هادئة تناسب موضوعه المشحون بالأسى والحزن، والشاعر التزم في قصيدته تقسيم البيت إلى شطرين

متساويين، كما التزم قافية واحدة ختم بها جميع الأبيات، كما كان يفعل قدامى الشعراء والقصيدة من بحر البسيط. وللقصيدة وحدة فنية تربط بين أجزائها وتجعلها بناء متماسكاً يشدّ بعضه بعضاً، والوحدة الفنية للقصيدة من مظاهر التجديد في هذا العصر. وأخيراً نذكر ما قال شوقي ضيف في حقّه: «شاعرنا الرصافي لا يعيش لنفسه، إنما يعيش لمواطنيه، وقد يمتدّ بصره إلى أعلى، فيعيش للإنسانية كلّها، وهو يستخلص لشعبه كلّ الميزات التي تحيله شعباً ممتازاً في خلقه وروحه وعقله، ولعلّه من أجل ذلك كان الرصافي يشيد دائماً بالعلم ويدعو إلى إعطاء المرأة حقوقها، وإنه ليفزع إلى ربّه يطلب منه الرحمة بالبشر، حتى في الموت والجزاء، وإنه ليتساءل فيم هذا الاختلاف بين الناس؟ ولماذا كان بعضهم في نعيم وبعضهم في عذاب؟ وإنّ ذلك ليشقى الرصافي، بل لكأنّه هو الشقى المحروم الذي ينعه، فالحياة مظلمة من حوله، وروحه في قلق دائم تريد للناس جميعاً أن يكونوا سعداء، وأن يزایل الشقاء البشر كلّهم من مسلمين وغير مسلمين، وهو لذلك يكثر من الأئين، ومن دعوة الأغنياء إلى أن يمسحوا على بؤس البائسين. ولعلّ في ذلك كلّ ما يدلّ على أنه كان يحلم للناس وخاصة من مواطنيه بعالم سعيد» (ضيف، ١٩٥٩: ٣٨).

### نتيجة البحث

كانت هذه لمحة وجيزة عن مواقف الرصافي من الحياة، ونرى هذه الآراء في شتّى قصائده ولاسيما «تنبيه النيام»، «رقية الصريحي»، «إيقاظ الرقود» و «بعد الدستور». فالرصافي شاعر الاجتماع والسياسة من الدرجة العالية؛ يعطف على الفقراء البائسين لأنه ذاق مرارة البؤس والفقر، ويشير في شعره إلى مشاكل اجتماعية بمواقفه النقدية. وهو إلى ذلك لشاعر القومية العربية الذي دعا العرب إلى توحيد صفوفهم وإحياء مجدهم القديم.

## المصادر والمراجع

- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم. ١٩٨٨م، **لسان العرب**، بيروت: دار التراث العربي.  
البيستاني، بطرس. ١٩٧٧م، **محيط المحيط**، بيروت: مكتبة لبنان.  
الرصافي، معروف. ١٩٣١م، **ديوان الرصافي**، بيروت: دار الفكر.  
ضيف، شوقي. ١٩٥٩م. **دراسات في الشعر العربي المعاصر**، القاهرة: مكتبة مصر.  
العقاد، عباس محمود. ١٩٤٧م، **معروف الرصافي**، بيروت: دار الجيل.  
الفاخوري، حنا. ١٩٨٤م، **الجامع في تاريخ الأدب العربي**، بيروت: دار الجيل.  
محمد السيد، عبدالرحمن. ١٩٧٠م، **المغنى في النصوص والأدب**، بيروت: دار العلم للملايين.

## المقالات

- نادري، اسماعيل. أبان ١٣٨٩، «معروف الرصافي؛ محلل اجتماعي للفقر والحرمان»، فصلية دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامية في جيرفت، سنة ٢، عدد ٨، صص ١١١-١٢٤.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی  
پرتال جامع علوم انسانی